بسم الله الرحمن الرحيم

منتدى الرواية

المِنَصةُ الرَقَمَية لمُدَارَسَةِ الرِوايَات السُودَانية

جلسة النقاش رقم (2)

رواية أزمنة الترحال والعودة– الحسن محمد سعيد

السبت 2020/06/13م

قراءة نقدية: الأستاذ، أحمد مجذوب الشريفي

التاريخ والسياسة والأيدلوجيا، غياب الصراع وجمود الحدث الدرامي

مقدمة:

يلعب الأملُ دائماً دوراً كبيراً ومهماً في استمرارية وديمومة حياة البشر كافة. فهو العلاج المسكن الذي يلجأ إليه الناس لرأب صدع الانتكاسات، وتخفيف ضغوط المصائب والنوائب التي تصادفهم في حياتهم نتيجة السياسات الخاطئة للأنظمة

الشمولية المتناسلة، والنظرة الأُحادية، والفكر الواحد، وما يسببه الخطأ المتوارث في إلغاء حق اختيارات الآخرين، فيكثر الارتحال وقد تكون لا عودة.

بناءً عليه، فكلُ أدبٍ يتعاطى مع شؤون الحكم تأييداً أو تفنيداً، أو يتناول علاقة الأمة بغيرها في سلم أو حرب، وعلاقات الأمة كالمكونات الحزبية ومجموعات المجتمع المدني. كل هذا وتأثيرها و تأثرها يشير إلى أن هناك نوعاً من القصد في كتابة أدب سياسي حديث، أو له جذور من التاريخ قربت زمانا أم بعدت، وكل الأحداث التي مضت هي تاريخ وإن لم يُكتب. السياسة تتدفق أحياناً إلى العمل الأدبي دون وجود نية مبيتة لذلك، أو وجودها، فنجيب محفوظ يقول في حديثه عن شخصيات روايته "ميرامار": "لقد بدأت بنية كتابة حياة أشخاص فتحول كل شيء إلى المعنى السياسي، أي تحوَّل مسار الشخصيات من مجرد شخصيات مستمدة من الواقع إلى رموز سياسية".

العنوان والإهداء (المدلول):

عنوان الرواية أشار بوضوح الى هذا، وكل الأحداث التي جرت وتأثيرها بصورة مباشرة أو غيرها، أشار إلى الدور السياسي الذي أجبر الكثيرين للخروج ثم كان الإهداء: (إلى طيور السودان المهاجرة.. عقول أبنائه التي ارتحلت عنه في أزمنة الاضطرار. إما لجبروت ظالم، أو لقهر متربة، أو لرعب مسغبة.. وهو بلد التسامح والخاطر المجبور، والثراء الذي يفوق المنظور.)

هذان (العنوان والاهداء) لوحدهما كانا كفيلين كمداخل مباشرة تقود إلى عمق الرواية، فكيف كانت، وكيف تحققت أبعاد الارتحال، ثم لاحقا العودة، و(الارتحال) وليس (الترحال) التي تشير إلى ليونة الفعل كسياحة، أو لظروف الانتقال

بين الأمكنة لزمن معلوم كحركة البدو الرعاة دون تأثيرات لقهر، وجبروت، يلزم بالارتحال. بالتالى كانت في تقديري ستكون الكلمة (الارتحال) لها قوة ومدلول يشير إلى (الجبرية) و الأمر القسري بدون إرادة ونية مبيَّتة ومخطط لها سابقاً، مما يعكس أن مجموعة عوامل هي التي تسببت في إجبار عدد من الناس إلى الارتحال مُكرهين وليس الرحيل مخيرين، للدلالة على الفعل غير المرحب به، إلا أنه الاضطرار (إما لجبروت ظالم أو لقهر متربة أو لرعب مسغبة)، وكأنها ككلمة (الترحيل) عند بعض أو كثير من الدول التي تطرد الوافدين غير الشرعيين إليها وتبعدهم عنها (قسرا)، والعرب الرحل يقولون: الرحيل (عز) العرب، والإشارة واضحة.

الجسم السردي للرواية:

ثم أجد أن الكاتب قد أحدث حالةً من التوتر الشديد كمدخل عبَّر به عن حالة لواحد من أهم شخصيات الرواية (شعيب)، ليجعل القارئ يستعد ويستوعب ماذا حدث أو ماذا سيحدث؟ "ما شهدت الخرطوم تضارباً كما شهدت تضارباً في خبر موته" ثم.. "وكأن الدنيا في السودان تحوَّلت وانقسمت إلى فريقين"، إذا فالشخص (عظيم)، لكن هل كان له التأثير حسب ما وصف به؟

الأحداث الدرامية (الجمود والتصاعد):

معلوم أن كلمة دراما ارتبطت منذ القدم بالمسرح لما تتمتع به المسرحية من حوار وحركة، لأنهما من أهم خواص المسرح، وكلمة دراما هي المعنى الفني للمسرحية، فالحوار وحركة الشخصيات والتداعي الداخلي يعطي المسرحية الإثارة والدهشة، التي تجعل المشاهد يتأثر بها سلباً أو إيجاباً، وتولد عنده الرغبة في متابعة المسرحية. ثم انتقلت الدراما من المسرح إلى الأعمال الأدبية الأخرى كالرواية والقصة.. وعلى

هذا نجد أن الرواية التي بين أيدينا قد أبدع كاتبها في أسلوب حواره، كما أبدع في أسلوب سرده. فكما هو معلوم الطريقة التي يتم بها عرض القصة، أو الرواية وأحداثها ومجريات أمورها، بينما الحوار هو الكلام الذي يدور بين الشخصيات فيهما.

ويتم تعريف السرد بأنه قص الأحداث على لسان الراوي " أي من وجهة نظره "، بينما الحوار هو عرضٌ للحديث على لسان الشخصيات من خلال مخاطبة كلٍّ منهم للآخر.

ومعلوم بالضرورة أن لغة السرد تهدف إلى تحويل المعلومة المباشرة، أو الحدث البسيط، إلى سلسلة من الأحداث المتوالية، والمترابطة، التي تُكَوِّن في النهاية قصة محبوكة، ومقنعة، وتشمل في الوقت ذاته كل المعلومات التي يرغب الكاتب في توصيلها، من خلال إطار فني، ومزخرف، وممتع.

ثم إن أهمية الرواية كونها أكثر الأجناس الأدبية انتشاراً، تكمن في قدرتها على هضم الأحداث والتغييرات التي تفرضها بكافة أشكالها، وملامسة نبض الشارع عن قرب، ضمن (رؤى متعددةً للحدث ذاته)، وهناك اعتقاد واسع بأن الإبداع هو عملية هضم للأحداث. وبالتالي فإن عملية نقل الأحداث والتعبير عنها سردياً يحتاج إلى اختمارها في ذهن المبدع وإعادة صياغتها لاحقاً، بأحداثها وكيف، أو كيفية تصاعدها، لخلق بؤر من التوتر الذي يقود إلى التشويق ويجعل الرواية أكثر قبولاً لدى قراءتها.

وعلى هذا يُلاحظ أن الكاتب قد استخدم أسلوبا سردياً حوارياً، متجانساً، جاذباً، مستخدماً لغةً بسيطة تحاشى فيها التقعُّر والترهُّل وتوسيع الجمل السردية،

رغم أنه يكتب رواية يلزم غالباً إدخال أدق التفاصيل لتوسيع مجرى الأحداث وتصاعدها دراماياً، وفق حالة كل حدث. الزمانية، و المكانية، والتفاعل بينهما، من حيث المواقف. حيث يلاحظ أنه قد كسر في غالب مواضع الرواية حوارات بسيطة. سريع الانتقال بين شخوصه المتحاورين مما أعطى الرواية حركات، وانفعالات، أضفت جانباً أساسياً من المتابعة اللصيقة بالنصوص، مما أجبر القارئ أن يتابع، (هذا جيد في حد ذاته)، إلا أن كبح جماح التفاصيل و التوسُّع في الجُمل السردية، جعل الكاتب يقدم إشارات مختصرة لمواقف وأحداث كانت تتطلب مزيداً من التفاصيل ليحقق منها أبعاداً درامية تشكل مرتكزات لانطلاق صراع يسمح بتصاعده، سواءً على مستوى الشخص نفسه، أو على مستوى عدد من الشخوص، الهجرة و الارتحال من مكان إلى آخر، فتحت هي كذلك فضاءات متعددة، وقد لاحظنا كيف الحيرة قد داهمت شعيباً، وهو في حيرة بأن لا تجد بلاده حلَّاً لمشكلاتها المعضلة إلا خارج حدودها: في أبوجا، وأنجمينا وأديس أبابا، والقاهرة، وجيبوتي، وقطر، والرياض، وكينيا، وأسمرا، ونيويورك، ولندن. وكأن الخرطوم الجميلة والكريمة حيزبون عاقر وعقور ومجدبة ونَفُورْ.

من أين لـ(شعيب) أن يتعافى؟ صراع خفي كان له أن يتصاعد ويتمدد لتنفتح معه وبه فضاءات مختلفة، متعددة، تزيد من حِدَّة التوتر وتصاعد الأحداث والمواقف، سواءً على مستوى:

الفكرة كأيدلوجيا وانتماء حزبي، خاصة أن الكاتب قد تلمُّس أنواعاً مختلفة من نقاط يمكن أن تكون ذات أبعاد تساعد في تطور الحدث الدرامي بدءاً من (فريق يتمنى موته وفريق يتمنى حياته) هذا مرتكز أول لضرورة نشوب صراع وتصاعده، من خلال كلا الفريقين لِم هذا يريد هذا، و ذاك يتمنى غير تلك؟ ثم لِم

كل هذا؟ إذا علمنا أن الكاتب في الأصل وضعه في مكانة عظيمة تكاد تصل إلى الملائكية، وكأن الدنيا في السودان تحوَّلت وانقسمت إلى فريقين"، إذا فالشخص (عظيم)، لكن مثل هذه الأحداث التي كان لتطور الصراع حولها قد يقود الى تنامٍ وتصاعد الحدث الدرامي لنعلم من خلاله أيهما أحق بموقفه بين من يتمنى موته ومن يتمني حياته، بالتالي تكون الإجابة هل كان له كل هذا التأثير حسب ما وصف به؟.

كذلك "فأصبح يتخذ المواقف من الحياة ومن الناس على ضوء رؤية لا يجامل فيها عندما تتعلق بالأخلاق والمبادئ والكرامة"، " متنافسين ومتصارعين، أحدهما يعمل على وفاته، والآخر يعمل على بقائه حي " وعلى هذا نجد الرواية تتحدث اقتضابا دون تفاصيل كان سيكون لها أثر في تصاعد التوتر إذا لم يكن خلافاً واختلافاً في الرؤى والأفكار فقد قرأنا (الحزب الشيوعي) فهل كل عضويته لايوجد بينهم صراع؟ حتى لو كان داخل النفس الواحدة ما بين قبول ورفض لبعض أو عدد من المبادئ فصراع الثقافة يختلف، ثم تطرّق الكاتب إلى نزعات صوفية، صلاة وعدم صلاة، صيام وغيره من عبادات أخرى، حتى صراع النفس الأمارة بالسوء مع (جيني) رفض فقبول، ندم، تلذُّذ، تكرار فعل غير محبب. إذا قلنا إن معروف شخصية متزنة، أبعدت نفسها وحرصت أن لا تأتى بالمكروه ناهيك عن الحرام إلا أنه (سقط). ألا يحدث هذا السقوط في وحل الرزيلة قلبه فيجعله يندم؟ ولو ظاهرياً!؟.

الثانية السياسة والتي جعلها الكاتب مرتكزاً للارتحال والابتعاد نأياً بالنفس من مخاوف مبررة، وما يمكن أن يصيبها جراء تعنُّت المواقف السياسية. قبولها، أو رفضها. مع أو ضد، الخوف والأمان سواءً على مستوى الفرد، أو مستوى الأخوان كمصفوفة اتفقت على مبادئ محددة. مما يستوجب إدخال الأحداث الدرامية التي توضّح كل هذا، وتبيِّن أوجه الصراع بدءاً مع السلطات وتبيان من سينتصر في هذا

الصراع، وبأي منطق انتصر أو هُزم؟ وما رد الفعل على الفرد أو جماعته؟ كنتيجة نهائية لهذا الصراع..!!؟..

الثالثة أيضا الارتحال، إذا علمنا أن هذا الارتحال كان لأسباب وجيهة ومنطقية على الأقل من وجهة نظر الشخوص الذين ظهروا كأدوار رئيسية أو ثانوية وحتى أولئك الذين كانوا على هامش الأحداث، كل هولاء شكّلت السلطات مواقفاً معهم استدعتهم للهروب، ثم كانت لقاءات ولقاءات، فهذه كانت بالضرورة مسببات رئيسية لحدوث تصاعد درامي متعدد المواقف والأحداث.

في تقديري إن أسلوب الكاتب، وبناء الرواية الفني، واستخدامه الرجوع بالذاكرة، خاصة أن الكاتب قد عايش كثيراً من الأحداث فاجتهد أن ينقلها بواقعيتها كما حدثت له، أو حكيت له، وما شاهده من مواقف أرهقت إخوانه، هذا الأسلوب (اجترار الماضي) والرجوع بالذاكرة في كثير من المواقف جعل الكاتب مكبلاً بوقائع لم تمكنه من تطور أحداث الرواية الدرامية.

لا يتوقف الأمر عند هذا فكثير بل كثير جدا من المواقف الدرامية صنعت أحداثها (فجأة) الصدفة هي التي سيرت أحداثها يلتقي هذا بذاك فيحدث له مفاجأة، فجأة، فجأة يظهر معروف أمام شعيب، فتثور الأسئلة من المرافقين لشعيب، ثم فجأة يتماثل شعيب للشفاء، ثم يكتشف معروف أن شعيباً له صداقة ما مع يونس فتنشأ علاقة نتيجة هذه الصدفة، فعنصر المفاجأة أربك الكاتب، ولم يمكنه من توسيع دائرة الأحداث، فألجمت تصاعدها الدرامي وقيَّدته، فسارت الرواية بهدوء، وأصبحت أشبه بالجسم المسطح الخالي من المطبات التي تعترض سير العربة في طريق ترابي غير مسفلت بين عطبرة والخرطوم.

وكما قلت سابقاً، إن هذه الرواية قد انفتحت على عوالم متعددة كان الممكن أن تصعد الأحداث الدرامية، الا أن غياب التفاصيل الدقيقة واللغة الشاعرية جمدت التصاعد الدرامي لأحداثها، فقللت من قيمتها، والتي في تقديري كانت ستكون أروع وأروع جداً، لو لم يستعجل الكاتب على إنهائها، فما زال أمام الرواية متسعاً خاصة وأن الكاتب محترف.

وشكراً جزيلاً..